نظرية (فيرث) السياقية بين الأصالة والتجديد

أحميد إحميدات: طالب مقيد بمرحلة الدكتوراة
تحت إشراف: أ. د. صلاح الدين محمد شمس الدين، ود. أحمد عارفين بن صفر
كلية اللغات واللسانيات، جامعة مالايا، كوالا لومبور، ماليزيا

مخلص البحث

يلقي هذا البحث الضوء على النظرية السياقية الحديثة التي يعتبر (جون روبرت فيرث: John Robert Firth) رائدها ومؤسسها في أواسط القرن العشرين، إذ تعتبر من أشهر وأهم النظريات في اللسانيات الحديثة. حيث ناقش الباحثون أصول النظرية السياقية عند العلماء العرب، ومدى معرفتهم لأهمية السياق في تحديد دلالة النص ومعانيه، والتجديد الذي أحدثته النظرية السياقية في فهم دلالة النص ومعانيه. وتكمن مشكلة هذا البحث في علاقة النظرية السياقية الحديثة بمصطلح السياق عند العلماء العرب القدماء، وطريقة استخدام الباحثين للنظرية السياقية من أجل فهم دلالة النص ومعانيه، ومدى انزياح النظرية السياقية الحديثة عن التقاليد العربية القديمة. ويهدف هذا البحث إلى التعرف على مكانة السياق في التراث العربي القديم، ومدى تأثير التراث العربي على الحضارات الأخرى، واستفادة تلك الحضارات من العلوم العربية. حيث تأتي أهمية البحث من خلال استعراض جهود العلماء العرب في التوصل إلى دلالة النصوص ومعانيها من خلال السياق، ومقارنتها بنظرية (فيرث) السياقية الحديثة. وقد استخدم الباحثون المنهج

الاستقرائي والمنهج المقارن للوصول إلى الحقائق العلمية والنتائج الحقيقية، من خلال الرجوع إلى المصادر والمراجع الأساسية لهذا البحث. وقد أظهرت النتائج أن النظرية السياقية قد عرفها العلماء العرب قديما وخاصة علماء البلاغة والأصول، وقد دلَّ على ذلك كتاباتهم التي أشارت إلى أهمية استخدام السياق في فهم دلالة النص والوصول إلى معانيه.

الكلمات المفتاحية: الكلمة، دلالة الكلمة على المعنى، السياق في الدراسات العربية، فيرث ونظريته السياقية

المقدمة

تعتبر النظرية السياقية كغيرها من النظريات اللسانية الحديثة التي نشأت تحت الظروف السياسية والاجتماعية والثقافية والدينية، وغيرها من الظروف التي ترتبط ارتباطا وثيقا بحياة الناس وعاداتهم اليومية. ولما كان الأدب هو انعكاس للظروف المحيطة بالأديب؛ فإن النتاج الذي يتبلور عن هذا الأدب على صلة وثيقة بظروف المجتمع، أي أن النظريات والأساليب وقواعد العلم المختلفة متأثرة بالظروف المحيطة بالمجتمع على اختلاف هذه الظروف.

فالنظرية – السياقية– نشأت تحت تأثيرات المجتمع وتطوراته، في النصف الثاني من القرن العشرين على يد العالم اللغوي جون روبرت فيرث (John Robert Firth) (ت١٩٦٠م)، الذي يعتبر رائد المدرسة السياقية التي ركزت في تفسيرها للمعنى على الطريقة التي يستخدم بها الكلمة، أي الكيفية التي جاءت عليها الكلمة، وهو ما يطلق عليه السياق الذي يعبر فيه عن الكلمة من خلال وضعها في نص ما. وقد استفاد (فيرث) من الدراسات اللسانية السابقة في مجال اللغة وخاصة أبحاث (دي سوسير) في البنيوية اللغوية، فالكلمة عند (دي سوسير) هي علامة لغوية وأن العلاقة بين اللفظ والمعنى أو الدال والمدلول اصطلاح غير معلل أي اعتباطي. فالعلامة اللغوية هي أيضا اعتباطية، وإن دلالة الكلمة مرتبطة بسياقها الذي يوحي بمعناها إذ تتحدد تلويناتها الدلالية عبر تداعيات مفهومية متميز[١].

وعليه فقد أكدت النظرية السياقية أنّ تحديد دلالة الكلمة يحتاج إلى تحديد السياقات التي ترد فيها، ونفت عن الصيغة اللغوية دلالتها المعجمية؛ لأن نظام اللغة نظام متشابك العلاقات بين وحداته، ومفتوح على التغيير في بنياته المعجمية والتركيبية، فخارج السياق لا تتوفر الكلمة على المعنى.

إن منهج النظرية السياقية يعد من المناهج الأكثر موضوعية ومقاربة للدلالة، ذلك أنه يقدم نموذجاً فعلياً لتحديد دلالة الصيغ اللغوية، وقد تبنى كثير

[١] مطهري، صفية، **الدلالة الإيحائية في الصيغة الإفرادية**، دمشق: منشورات اتحاد الكتاب العرب، ٢٠٠٣م.

من علماء اللغة هذا المنهج منهم العالم (وتغنشتين: Wittgenstein) الذي قال: "لا تفتش عن معنى الكلمة وإنما عن الطريقة التي تستعمل فيها". وعدَّ كثير من اللغويين النظرية السياقية خطوة تمهيدية في طريق المنهج التحليلي، فقد أكَّدَ (أولمان) أنَّ المعجمي يجب أولا أن يلحظ كل كلمة في سياقها، ويدرسها في واقعها العملي، ويستخلص من مجموع استعمالاتها العامل المشترك العام، فيسجله على أنَّه معنى الكلمة، وهذا المعنى هو المعنى المركزي للكلمة[٢].

١. السياق من حيث اللغة والاصطلاح

أ. السياق لغة

السياق لغة من الجذر اللغوي (س و ق)، والكلمة مصدر (ساق يسوق سوقاً وسياقاً)، فالمعنى اللغوي يشير إلى دلالة الحدث، حيث يقال: سقت إلى امرأتي الصداق وأسقته، وتساوقت الإبل تساوقا إذا تتابعت، وساق الحديث: إذا رواه على سياقه، وسياق الكلام تتابعه وأسلوبه الذي يجري عليه[٣]. من خلال النظر إلى التعريف اللغوي لمادة (السياق) يتضح أن المعنى يدور حول الاتصال والمتابعة.

ب. السياق اصطلاحا

[٢] الخماش، سالم سليمان، **المعجم وعلم الدلالة**. (جدة: جامعة الملك عبد العزيز، ١٤٢٨هـ)، ص٤٧.

[٣] ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، **لسان العرب**، تحقيق: عبد الله علي الكبير، محمد أحمد حسب الله، هاشم محمد الشاذلي، (مصر: دار المعارف، ١٩٨١م)، جـ٣، ص٢٠٩٢.

هو "المحيط اللغوي الذي تقع فيه الوحدة اللغوية، سواء أكانت كلمة أو جملة في إطار من العناصر اللغوية أو غير اللغوية"[٤]. ويرى (هاليداي (M. Halliday):أنّ السياق "هو النصّ الآخر أو النص المصاحب للنص الظاهر، وهو بمثابة الجسر الذي يربط التمثيل اللغوي ببيئته الخارجية"[٥].

وتقول بروس أنغام: "السياق يعني واحدا من اثنين:

أولا: السياق اللغوي، وهو ما يسبق الكلمة، وما يليها من كلمات أخرى.

ثانيا: السياق غير اللغوي: أي الظروف الخارجيّة عن اللغة التي يرد فيها الكلام"[٦].

وهذا التفريق بين نوعي السياق هو ما أكسبته نظرية (فيرث)، حين أصبح تناول المعنى لهذين الجانبين وهما: السياق اللغوي أو سياق النص (Linguistic context) والسياق غير اللغوي أو سياق الموقف (Context of the situation)[٧].

٢. النظرية السياقية عند (فيرث)

[٤] الطلحي، ردة الله بن ضيف الله، **دلالة السياق**، (السعودية: جامعة أم القرى، ١٤١٧هـ). جـ١، ص٥١.

[٥] حيدر، فريد عوض، **سياق الحال في الدرس الدلالي تحليل وتطبيق**، (مصر: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٩٨م)، ص٢٩.

[٦] الطلحي، **دلالة السياق**، جـ١، ص٥١.

[٧] بالمر، أف آر بالمر، **علم الدلالة**، ترجمة: مجيد الماشطة، (بغداد: مطبعة العمال المركزية، ١٩٨٥م)، ص٧٤.

تعد النظرية السياقية (Contextual theory) التي أرسى قواعدها وبنى أساساتها (جون روبرت فيرث) من أهم الإسهامات التي قدمها للدرس اللساني الحديث، فقد استفاد (فيرث) من دراسات عالم الإنثروبولوجيا (مالينوفيسكي) من خلال دراسته الاجتماعية، إذ يرى أن اللغة ظاهرة اجتماعية ينبغى الاهتمام بها، حيث يقول (فيرث): "إن اللغة ينبغي أن تدرس بوصفها جزءا من المسار الاجتماعي، أي كشكل من أشكال الحياة الإنسانية، وليس كمجموعة من العلامات الاعتباطية أو الإشارات"[٨]. وبما أن اللغة هي الوسيلة الوحيدة التي تساعد على فهم المعاني المتعددة، فإن (فيرث) قام بدراسة مكونات اللغة وفق ظروف اجتماعية، وبالتركيز على العلاقات التي تربط اللغة بالمجتمع. ومن خلال ذلك فقد تبنى (فيرث) نظرية "سياق الموقف" التي ابتكرها (مالينوفيسكي) حينما واجهته مشكلة ترجمة النصوص الإثنوغرافية في جزر التروبرايندية التي كان يعمل بها، حيث طور على إثر ذلك نظرية سياق الموقف؛ ليتمكن من معاينة الوظائف أو المعاني التي تؤديها الكلمات والجمل في السياقات الموقفية الخاصة التي تستعمل فيها. فقد قرر (مالينوفيسكي) أنه: "من الضروري أن توضع كل ألفاظ الكلام في سياق الموقف لفهم مغزاها الحقيقي"[٩].

لقد أولى (فيرث) لعلم الدلالة أهمية كبرى، في الوقت الذي كان فيه اللسانيون يمتنعون عن دراستها؛ باعتبارها خارج نطاق اللسانيات وفوق طاقتها،

---

[٨] مومن، أحمد، **اللسانيات – النشأة والتطور–**، (الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، ط٢، ٢٠٠٥م)، ص١٧٤.

[٩] المرجع نفسه، ص١٧٧.

حيث أراد أن يجعلها علما مستقلا بذاته، فهو يقول في ذلك: "دراسة الدلالة هي المهمة الرئيسية للسانيات الوصفية". ولتوضيح معنى الدلالة فقد قام (فيرث) بتميز نوعين من العلاقات التي ترتبط بهما الألفاظ وهما: العلاقات الداخلية أو الشكلية، والعلاقات الموقفية، ويشمل النوع الأول العلاقات التي تربط وحدة لغوية معينة بالوحدات الأخرى، كالعلاقة الموجودة بين الوحدات اللغوية في تتابع ما، والعلاقات التركيبية بين الوحدات النحوية والعلاقات الفونولوجية بين الوحدات الصوتية. أما النوع الثاني فيشمل العلاقات بين الوحدات اللغوية ومكونات الموقف غير اللغوية[١٠].

يتبين من خلال ما سبق أن النظرية السياقية عند (فيرث) تنطلق من ركنين أساسيين، هما: السياق اللغوي الداخلي أو سياق النص، وقد أشار إليه (فيرث) من خلال حديثه عن نوعية العلاقات التي تربط الألفاظ، وهي العلاقات الداخلية أو الشكلية. وبعبارة أخرى، فإن السياق الداخلي لا يتجاوز وظائفه خارج حدود النص. أي أنه يبحث في علاقة الكلمة بالأخرى، وعلاقة الكلمة بالجملة، بالإضافة إلى علاقة الحروف والأصوات بالكلمة.

أما الركن الثاني للنظرية السياقية فهو السياق الخارجي أو سياق موقف أو السياق غير اللغوي، وقد أشار إليه (فيرث) بالعلاقات الموقفية، وهو السياق الذي تربطه علاقة ما مع الظروف والملابسات المحيطة بالكلام أو العناصر

[١٠] المرجع نفسه، ص١٧٩.

الخارجية غير اللغوية، وقد استفاد (فيرث) في سياق الموقف من إشارات (مالينوفيسكي) من خلال أبحاثه ودراساته الإنثروبولوجية.

يؤمن أتباع النظرية السياقية أن المعاني هي أنماط سلوكية يمتلكها الإنسان في إطار سياق معين ويسمى (السلوك الكلامي)، وهذه الأنماط هي الكلمات والألفاظ التي ينطقها الإنسان؛ ليعبر بها عن دلالات معينة، أي أن هناك علاقة بين السلوك والسياق. وقد أطلق (فيرث) على السلوك الكلامي اسم (المعطيات الصوتية): "وهي عبارة عن متصل كلامي غير مقطع، والسياق الواسع هو الثقافة. والسياقات الثانوية هي سياقات الموقف"[١١].

ويقترح (فيرث) تقسيم المعنى إلى مجموعة من الوظائف المكونة، وما الوظيفة إلا ضرب من استعمال شكل أو عنصر من لغة معينة حسب سياق معين، وينظر إلى هذا المعنى على أنه مركب من العلاقات السياقية. وتبعا لذلك فقد قام (فيرث) بتقسيم تلك السياقات إلى أقسام عدة، موزعة ضمن تسلسل هرمي مضبوط، وهي على النحو الآتي [١٢]:

١. السياق الصوتي
٢. السياق المعجمي
٣. السياق الصرفي
٤. السياق التركيبي
٥. سياق الموقف
٦. السياق الثقافي

[١١] المرجع نفسه، ص١٨١.

[١٢] الطلحي، **دلالة السياق**، ج١، ص١٦٣.

وقد عقَّب (فيرث) على هذا التوزيع بقوله: "إن التقنية التي رسمتها هنا عبارة عن تحليل تجريبي عوض عن تحليل نظري للمعنى، ويمكن وصفها كسلسلة من الاجراءات لوضع الظواهر في سياقات: سياق في سياق، وكل سياق عبارة عن وظيفة أو عضو في سياق أكبر، وتجد كل السياقات مكانا لها فيما يسمى بسياق الثقافة"[١٣].

تنبه (فيرث) إلى أهمية الوظائف أو السياقات السابقة في تحليل السياق اللغوي، والكشف عن المعاني الدقيقة، إلا أن السياقات (الثاني والثالث والرابع) تعتبر جوهر السياق اللغوي أو الوظائف الحاكمة في نظرية السياق وأساسه، ولا يعني ذلك إهمال السياقات الأخرى، فلكل سياق منها وظيفته الخاصة ومرتبط بغيره من السياقات. أما (السياق الدلالي أو الوظيفة الدلالية) فإن (فيرث) يحدد وظيفتها بعلاقتها مع جميع السياقات اللغوية الأخرى في إطار السياق الخارجي أو سياق الموقف.

لقد قام (فيرث) بتطوير نظريته السياقية في آخر عهده، وخاصة فيما يتعلق بالسياق اللغوي، حيث أضاف مصطلح "الرصف" أو التلازم أو المصاحبة إليها، وكان ذلك نتيجة اهتمام (فيرث) بالجانب الشكلي للمفرادات المعجمية، بجانب الاهتمام العام بالكلمة أو المفردة المعجمية، فقد لاحظ (فيرث) أن مجيء كلمات مصاحبة لكلمات أخرى يجسِّد أحد معانيها، واتخذ للمصاحبة مستوى من مستويات السياق اللغوي أطلق عليه "المستوى المصاحبي" أو "مستوى

[١٣] J. R Firth, Introduction Studies in Linguistic Analysis, Philosophical Society Volume, Oxford: Blackwell, 1957 p, v.

التحليل الرصفي" وأدرجه ضمن البحث المعجمي. وجاء ذلك من خلال قوله: "نعرف الكلمة بالمجموعة التي تلازمها"[١٤]. ومما يستدل من كلام (فيرث) فإن الرصف يعني الورود المتوقع لكلمة ما مع ما يناسبها أو يتلاءم معها من الكلمات الأخرى في سياق لغوي ما، ومن أمثلة هذا النوع: اللبن مع البقرة، والليل مع الظلمة، فإن جزءا من معنى الليل يكمن في إمكانية وروده مع لفظ الظلمة، وكذلك جزء من معنى الظلمة يكمن في إمكانية وروده مع لفظ الليل[١٥]. وقد ميز (فيرث) بين نوعين من الرصف، هما:

١. الرصف الاعتيادي الذي يوجد بكثرة في أنواع مختلفة من الكلام العادي.

٢. الرصف البليغ الموجود في بعض الأساليب الخاصة، وعند بعض الكتاب المعنيين[١٦].

إن دراسة وتحليل السياقات وأنماط الرصف المختلفة وفقا لنظرية (فيرث) قد بلغا إلى نتيجة مهمة فحواها "أنه لم يعد ينظر إلى الكلمات باعتبارها وحدات معجمية تشغل مواقع نحوية محددة، وإنما إلى شروط استخدامها في تلاؤم وانسجام مع الكلمات الأخرى الواردة في النص"[١٧].

---

[١٤] بالمر، ف. ر، **علم الدلالة إطار جديد**، ترجمة: صبري إبراهيم السيد، (مصر: دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٩م)، ص١٤٥.

[١٥] البركاوي، عبد الفتاح عبد العليم، **دلالة السياق بين التراث وعلم اللغة الحديث**، (مصر: دار الكتاب، ١٩٩١م)، ص٥٢.

[١٦] المرجع نفسه، ص٥٣.

[١٧] المرجع نفسه، ص٥٣.

لقد تجاوز أتباع النظرية السياقية حدود علم الدلالة الذي يبحث في العلاقة بين الدال والمدلول، وفي معاني الكلمات والمفردات، إلى الدور الذي تؤديه الكلمات في السياق والطريقة التي تستعمل بها. لهذا نهج أتباع النظرية السياقية من أجل دراسة معاني الكلمات وفقا للمواقف التي ترد فيها والسياق الذي توضع فيه، إلى تقسيم السياق إلى أقسام أربعة، تشمل كل ما يتصل بالكلمة من ظروف خارجية وعوامل داخلية وسمات ثقافية ونفسية، وتتمثل هذه السياقات فيما يأتي:

١. **السياق اللغوي**: هو الدلالة الناتجة عن العلاقات بين الكلمات المتجاورة مع بعضها البعض في جملة ما، مما ينتج عنها معنى خاصا محددا. ويمكن أن نضرب مثالا على ذلك كلمة "عين" حيث نجد أن لها في المعجم معانٍ كثيرة ومتعددة، مثل (عضو الإبصار، الجاسوس، وسيد القوم، وعين الماء، وغيرها الكثير) لكن الذي يحدد المعنى الذي نريده هو السياق، فعندما نقول: في الجبل عين جارية؛ فإننا نقصد هنا (عين الماء)، وعندما نقول: هذا عين العدو، فإننا نقصد هنا (الجاسوس) وكذلك في جميع سياقات الكلام.

٢. **السياق العاطفي**: وهو الذي يحدد طبيعة استعمال الكلمة بين دلالتها الموضوعية ودلالتها العاطفية، كما أنه يحدد درجة الانفعال بين القوة والضعف، مثل استخدام بعض الكلمات في حالة الغضب دون أن يقصد معناها الموضوعي، مثل (الذبح، القتل، الضرب، وغيرها)، كقول الإنسان في حالة الغضب: لأقتلنك. فهو لا يرد هنا القتل بمعناها الموضوعي أي خروج الروح من الجسد. وإنما على سبيل تفريغ للعاطفة، وغليان النفس من الغضب.

٣. سياق الموقف: ويقصد به الظروف الخارجية أو المؤثرات التي تؤثر على الكلام نابع من المحيط الخارجي، وليس من اللغة ذاتها. ويدل سياق الموقف على العلاقات المكانية والزمانية التي يجري فيها الكلام. مثل جملة: يرحمك الله، التي تقال في مقام تشميت العاطس، في حين أن جملة: الله يرحمه، فتقال في مقام الترحم على الميت. فالأولى بُدأ بالفعل وتدل على طلب الرحمة في الدنيا، في حين أن الثانية بُدأت بالاسم وتدل على طلب الرحمة في الآخرة.

٤: **السياق الثقافي:** وهو الدلالة التي تؤديها الظروف الاجتماعية أو الثقافية في تحديد معاني الكلمات في سياق ما. مثل كلمة (حرمة) وكلمة (مدام) فالأولى تستخدم بين طبقات المجتمع المتوسطة ذات الثقافة القليلة، بينما تستخدم الكلمة الثانية بين طبقات المجتمع العالية ذات الثقافة المرتفعة للدلالة على الزوجة[١٨].

كانت تلك الإشارات ملخصة وموجزة لنظرية (فيرث) السياقية، وهذه النظرية وغيرها من النظريات اللسانية الحديثة نجد أن جميع الباحثين الذين اهتموا بالدرسات الحديثة، قد أشاروا إليها وأسهبوا فيها إسهابا يدعو إلى الاختصار والإيجاز في هذا المقام، وإن ما يعنينا أكثر في هذا المقام هو "السياق اللغوي" وما يحتويه من وظائف أو سياقات تدخل تحت لوائه. فموضوع هذا البحث لا يتجاوز غيره من السياقات السابقة الذكر.

[١٨] عمر، أحمد مختار، **علم الدلالة**، (القاهرة: عالم الكتب، ط٥، ١٩٩٨م)، ص ٦٩- ٧١. / قدور، أحمد محمد، **مبادئ اللسانيات**، (دمشق: دار الفكر، ط٣، ٢٠٠٨م)، ص٣٥٢- ٣٥٥.

٣. السياق في التراث العربي القديم

لقد عرف علماء العربية في القديم أهمية السياق ودلالاته في الكلام، وخاصة علماء البلاغة والتفسير والأصول. فاهتموا بدراسة النص باعتباره المسرح الذي يوظِّف فيه الكاتب مراده ومقصده. وقد جاء لفظ السياق في كتابات العلماء، فتارة يكون بالتصريح وتارة بالتلميح، وإن كان المغزى عندهم واحد. وسوف نتناول في هذا المقام بعض الإشارات عند هؤلاء العلماء التي تدل على معرفتهم بالسياق وأهميته في البحث عن دلالة المعنى ومقصده الدقيق.

أولا. علماء البلاغة: لقد تنبه علماء البلاغة إلى أهمية السياق في الكشف عن بلاغة الكلام، وقد جاء ذلك من خلال الربط بين "مقتضى الحال" والمقال، وقالوا: "لكل مقام مقال"، وهذا المقال يتمثل في الكلام أي السياق اللغوي، أما الحال فهو مرادف لسياق الموقف الذي يدعونا إلى اختيار الألفاظ، حيث أولى البلاغيون لهذا الربط عناية كبيرة، ولا أدل على ذلك من بناء المعلم الأول للبلاغة العربية عبد القاهر الجرجاني "نظرية النظم" على هذا الأساس ألا وهو البحث عن جوهر الكلام ودلالاته. وقد أفرد لهذه النظرية كتابا خاصا أسماه "دلائل الإعجاز". فالنظم عند الجرجاني هو: "أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضه علم النحو، وتعمل عليه قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها"[١٩]. وقد ربط الجرجاني فصاحة الكلمة بسياقها اللغوي والتركيب الذي

[١٩] الجرجاني، عبد القاهر بن عبد الرحمن، **دلائل الإعجاز**، (القاهرة: مطبعة المدني، ط٣، ١٩٩٢م)، ص٨١.

قيلت فيه، وأن اللفظة لا تكتسب فصاحتها إلا من خلال إيرادها في سياق الكلام وملائمة معناها لمعنى جاراتها، فيقول: الألفاظ: "لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجردة ولا من حيث هي كلم مفردة، وأن الألفاظ تثبت لها الفضلية وخلافها في ملائمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها أو ما أشبه ذلك مما لا تعلق له بصريح اللفظ"[٢٠]. فهو هنا يرجع كل فضيلة وكل مزية في الألفاظ إلى السياق الذي ترد فيه، وأن فصاحة الكلمة وأثرها في المتلقي ينتج من خلال ربطها بغيرها من الألفاظ، ويقول في موضع آخر: "وجملة الأمر أننا لا نوجب الفصاحة للفظة مقطوعة مرفوعة من الكلام الذي فيه، ولكنا نوجبها لها موصولة بغيرها، ومعلقا معناها بمعنى ما يليها"[٢١].

وهذا الأصل الذي ذهب إليه الجرجاني هو المحك الأساسي الذي بُنيت عليه النظرية السياقية الحديثة، فالنظرية السياقية ترى أن الكلمة لا وزن لها خارج السياق، وإذا أردنا أن نتعرف على معنى هذه الكلمة يجب وضعها في سياق ما؛ حتى يتم معرفة معناها الدقيق.

أما سياق الحال أو المقام الذي يرادفه في النظرية السياقية الحديثة "سياق الموقف" فإننا نجده في قول الخطيب القزويني الذي عبر عنه بقوله: "أمّا بلاغة الكلام فهي مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته، ومقتضى الحال مختلف، فإن مقامات الكلام متفاوتة، فمقام التنكير يباين مقام التعريف، ومقام الإطلاق يباين

[٢٠] المرجع نفسه، ص٤٥- ٤٦.

[٢١] المرجع نفسه، ص٣٦٧.

مقام التقييد، ومقام التقديم يباين مقام التأخير، ومقام الذكر يباين مقام الحذف، ومقام القصر يباين مقام خلافه، ومقام الفصل يباين مقام الوصل، ومقام الإيجاز يباين مقام الإطناب والمساواة، وكذا خطاب الذكي يباين خطاب الغبي، وكذا لكل كلمة مع صاحبتها مقام "[٢٢].

كذلك نجد الإمام السكاكي يؤكد على أهمية سياق الحال، حيث يقول: "ثم إذا شرعت في الكلام فلكل كلمة مع صاحبتها مقام، ولكل حد ينتهي إليه الكلام مقام وارتفاع شأن الكلام في باب الحسن والقبول وانحطاطه في ذلك بحسب مصادفة الكلام لما يليق به، وهو الذي نسميه (مقتضى الحال)"[٢٣]. وهذان النموذجان السابقان يدلان على أن سياق الحال أو سياق الموقف له تأثير كبير على نوع الكلام، وهذا التنوع في الكلام يفضي إلى تنوع في المعاني والدلالات، فإذا أردنا معرفة تلك المعاني والدلالات يجب مراقبة الحال الذي نقول فيه ونضع فيه الكلام. وهذا هو المبدأ الذي قامت عليه النظرية السياقية في سياق الموقف.

ثانيا. علماء الأصول: لقد اعتنى علماء القرآن والمفسرون بدراسة النص القرآني بشقيه: سياق النص وسياق الموقف، حيث نظر العلماء إلى الآية القرآنية على أنها جزء من النص القرآني، أي أن فهم معاني ومقاصد الآيات القرآنية معقود

---

[٢٢] القزويني، جلال الدين محمد بن عبد الرحمن، **التلخيص في علوم البلاغة**، تحقيق: عبد الرحمن البرقوقي، (بيروت: دار الفكر العربي، ط٢، ١٩٣٢م)، ص٢٠.

[٢٣] السكاكي، أبو يعقوب يوسف ابن أبي بكر محمد بن علي، **مفتاح العلوم**، تحقيق: نعيم زرزور، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط٢، ١٩٨٧م)، جـ١، ص١٦٨.

على أخذ القرآن جملة واحدة. وقد لجأ الأصوليون إلى قرائن السياق في تحديد المعنى، وهذه القرائن على نوعين: القرائن اللفظية والقرائن المقامية، وفهموا الأثر الذي تقوم به هذه القرائن في تحديد دلالة النصوص.

لقد فطن الإمام الشافعي إلى أهمية السياق في فهم إدراك معاني النصوص القرآنية، حيث عقد بابا في رسالته أسماه:"باب الصنف الذي يبين سياقه معناه" فقال: قال الله تعالى:﴿ وَسْئَلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي ٱلسَّبْتِ﴾ (الأعراف: ١٦٣). فابتدأ جل ثناءه بذكر الأمر بمسألتهم عن القرية الحاضرة البحر، فلما قال: إذ يعدون في السبت؟ دل على أنه أراد أهل القرية؛ لأن القرينة لا تكون عادية ولا فاسقة بالعدوان في السبت ولا غيره، وأنه أراد بالعدوان أهل القرية الذين بلاهم الله بما كانوا يفسقون[٢٤].

وكذلك الإمام فخر الدين الرازي أشار إلى أهمية القرائن، حيث قال: "الشرط في رواية المعاني أن يكون الراوي عالما بما قبل الكلام وبما بعده، وبالقرائن الحالية والمقالية الصادرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإن من المحتمل أن الراوي لما دخل عليه كان قد ذكر كلاما قبل ذلك تغير حال هذا الكلام بسبب تلك المقدمة"[٢٥].

[٢٤] الشافعي، محمد بن إدريس، **الرسالة**، تحقيق: أحمد محمد شاكر، (دمشق: مصطفى البابي الحلبي، ١٩٣٩م)، ص٦٢.

[٢٥] الرازي، فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين، **المعالم في أصول الفقه**، (القاهرة: دار عالم المعرفة، ١٩٩٤م)، ص١٤٧.

ولعل أوضح الإشارات التي استخدمها علماء الأصول ما ذكره الزركشي عندما أفرد بابا خاصا أسماه (دلالة السياق) في كتابه (البحر المحيط) في أصول الفقه، حيث بدأه بقوله: "أنكرها بعضهم، ومن جهل شيئا أنكره، وقال بعضهم إنها متفق عليها في مجاري كلام الله تعالى"[٢٦].

ويشير ابن تيمية إلى أهمية السياق في فهم القرآن والسنة الشريفة، وقد عدَّ ذلك من الواجب معرفتها للوصول إلى الأغراض، حيث قال: "ينظر في كل آية وحديث بخصوص، وسياقه، وما يبين معناه من القرائن والدلالات، فهذا أصل عظيم مهم نافع في باب فهم الكتاب والسنة، والاستدلال بهما مطلقا"[٢٧].

وقد أكد العلامة الشيخ يوسف القرضاوي إلى أهمية مراعاة دلالة السياق في فهم القرآن وصحة تفسيره، حيث قال: "ومن الضوابط المهمة في حسن فهم القرآن، وصحة تفسيره: مراعاة سياق الآية في موقعها من السورة، وسياق الجملة في موقعها من الآية، فيجب أن تربط الآية بالسياق الذي وردت فيه، ولا تقطع عما قبلها وما بعدها، ثم تجرّ جرا؛ لتفيد معنى أو تؤيد حكما، يقصده قاصد"[٢٨].

ثالثا. علماء التفسير: لم يكن علماء التفسير في معزل عن معرفة أهمية السياق ودوره في فهم وتفسير النص القرآني ومعرفة الأحكام الشرعية من خلاله. فقد

---

[٢٦] الزركشي، محمد بن بهادر بن عبد الله، **البحر المحيط في أصول الفقه**، تحقيق: عبد القادر عبد الله العاني، (الكويت: دار الكتيبي، ١٩٩٤م)، جـ٦، ص٥٢.

[٢٧] ابن تيمية، تقي الدين أحمد بن تيمية الحراني، **مجموع الفتاوى**، تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، (السعودية: دار الوفاء، ط٣، ٢٠٠٥م)، جـ٦، ص١٩.

[٢٨] القرضاوي، يوسف، **كيف نتعامل مع القرآن العظيم**، (القاهرة: دار الشروق، ط٧، ٢٠٠٩م)، ص٢٧٤.

أولوا للسياق أهمية كبرى في تحديد معاني الآيات القرآنية، وبيان دلالاتها السياقية، فنجد من هؤلاء العلماء الإمام القرطبي الذي استعمل السياق في مواطن كثيرة من تفسيره (جامع البيان) في بيان معاني ومقاصد الآيات القرآنية، كما اعتمد على السياق في ترجيح الآراء والأقوال الواردة في تفسير بعض الآيات القرآنية، كما نص على عدم جواز صرف الكلام عما هو في سياقه إلى غيره، إلا بحجة يجب التسليم لها، فقد قال: "فغير جائز صرف الكلام عما هو في سياقه إلى غيره، إلا بحجة يجب التسليم لها من دلالة ظاهر التنزيل أو خبر عن الرسول تقوم به الحجة، فأما الدعاوي فلا تتعذر على أحد"[٢٩].

وقد قال الإمام الزركشي في ذلك: "ليكن محط نظر المفسر مراعاة نظم الكلام الذي سيق له، وإن خالف أصل الوضع اللغوي لثبوت التجوز"[٣٠]. وهو ما ذهب إليه الإمام السيوطي حيث قال: "وعليه – المفسر– مراعاة المعنى الحقيقي والمجازي، ومراعاة التأليف، والغرض الذي سيق له الكلام، وأن يواخي بين المفردات"[٣١].

ولقد اهتم الطاهر بن عاشور بالسياق القرآني اهتماما كبيرا في الكشف عن مقاصد القرآن وأحكامه، حيث اعتبر السياق القرآني أصل من الأصول التي

---

[٢٩] القرطبي، محمد بن أحمد الأنصاري، **الجامع لأحكام القرآن**، تحقيق: هشام سمير البخاري، (القاهرة: مطبعة دار الكتب المصرية، ١٩٣٩م)، جـ٩، ص٣٨٩.

[٣٠] الزركشي، **البحر المحيط في أصول الفقه**، جـ١، ص٣١٧.

[٣١] السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن الكمال أبي بكر، **الإتقان في علوم القرآن**، تحقيق: مركز الدراسات الإسلامية، (السعودية: مجمع الملك فهد، ١٤٢٦هـ)، ص٨٧٤.

ينبغي الاعتماد عليها. فمن ذلك ربطه السياق بالمقاصد والأغراض من خلال تفسيره لقوله تعالى:﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِيْنَ الإِنْسِ وَالْجِنِّ﴾ (الأنعام: ١١٢). حيث يقول: "إذ أوضح أن للفعل ﴿جَعَلْنَا﴾ مفعولين: الأول: ﴿عَدُوّاً﴾، والثاني: ﴿لِكُلِّ نِبِيٍّ﴾، ويبين سبب تقديم المفعول الثاني على الأول في سياق الآية، فيقول: "لأنّه الغرض المقصود من السّياق؛ إذ المقصود الإعلام بأنّ هذه سنّة الله في أنبيائه كلّهم، فيحصل بذلك التَّأسِّي والقُدوة والتّسلية؛ ولأن في تقديمه تنبيهاً من أول السمع على أنه خبر"[٣٢].

هذه بعض الإشارات التي ذكرها العلماء القدامى في حديثهم عن السياق ودوره في فهم النصوص والأحكام، وهي فيض من غيض. هدفها بيان جهود هؤلاء العلماء في اهتمامهم بالعلم وفروعه المختلفة. وخاصة التي تعينهم على فهم الكتاب والسنة. وهذا يعني أن الفضل في ظهور مصطلح السياق يعود لهؤلاء العلماء أولا وقبل كل شيء. مع اعترافنا بجهود العلماء والباحثين اللاحقين في تأصيل هذا المصطلح وتقعيده وتطويره ضمن العلوم الحديثة.

الخاتمة

تعتبر النظرية السياقية من النظريات الأكثر أهمية في معرفة مدلولات الكلمات والوصول إلى معانيها ومضامينها من خلال وضعها في قوالب الجمل والعبارات. وهذه القوالب يمكن لنا أن نسميها (السياق)، إذ أن السياق هو المحور الذي تقوم

[٣٢] ابن عاشور، محمد الطاهر بن عاشور، **التحرير والتنوير**، (تونس: الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤م)، ج٨، ص٨.

عليه نظرية السياق في الوصول إلى الدلالات والأغراض. وقد تبين لنا أن النظرية السياقية أصبحت عمادا في اللسانيات الحديثة، واعتنى الكثير من العلماء والباحثين بها في دراسة دلالة الكلمات والجمل والنصوص، بل اعتبرها البعض بأنها تمثل انتقالا فريدا في علم الدلالة إذا تم تطبيقها بدقة متناهية وراعى فيها أركانها وأساساتها التي قامت عليه، خاصة أن النظرية السياقية لقيت اهتماما بالغا بعد وفاة (جون روبرت فيرث)، وقاموا بتعديلات وإضافات عليها، جعلها نظرية متكاملة من جميع زوايا اللغة. فالنظرية السياقية أصبحت تشكل مرجعا هاما في علم الدلالة.

لقد كان للسياق حضورا بارزا لدى علماء البلاغة والأصول والتفسير في مصنفاتهم وأعمالهم، وهذا يدل على معرفة العلماء القدامى لدور السياق فيما يؤديه من الوصول إلى الدلالات والأغراض التي تكشف عن مكنونات النص. وقد تطور مفهوم السياق عبر العصور، وانتقل من جيل إلى جيل، حتى أصبح نظرية علمية مستقلة على يد (روبرت فيرث). فاكتملت أركانها وظهرت معالمها لدى الباحث والقارئ؛ مما ساعدت في الكشف عن مدلولات الكلمات والنص عامة بيسر وسهولة. وتناول النظرية السياقية للسياق اللغوي (سياق النص) والسياق غير اللغوي (سياق الموقف) يشير إلى اعتمادها على القاعدة البلاغية (لكل مقام مقال) مما جعلها من النظريات الكاملة والحاوية لكل عناصر الكلام إذا ما طبقت بحكمة وجدارة.

يتضح مما سبق أن النظرية السياقية كان لها جذورا في التراث العربي القديم، وأن هذه الجذور نبتت في أحضان الحضارة الغربية، وعملوا على رعايتها وبناء مكوناتها وأساساتها، حتى أصبحت تشكل حلقة من حلقات الدرس اللساني الحديث والغربي المنشأة. وهو ما يدل على عملية التأثر والتأثير الحاصلة بين التراث العربي والحضارات الأخرى، ولا يعني ذلك أن جهود العلماء والباحثين السابقين تقل عن جهود الباحثين في العصر الحديث، وإنما لبيان أصالة التراث العربي وقدرته على التأثير في الحضارات الأخرى، واعترافا بنهل علماء الغرب من ذلك التراث واستفادتهم منه بشكل أو بآخر.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

ابن تيمية، تقي الدين أحمد بن تيمية الحراني، **مجموع الفتاوى**، تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، (السعودية: دار الوفاء، ط٣، ٢٠٠٥م).

ابن عاشور، محمد الطاهر بن عاشور، **التحرير والتنوير**، (تونس: الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤م).

ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، **لسان العرب**، تحقيق: عبد الله علي الكبير، محمد أحمد حسب الله، هاشم محمد الشاذلي، (مصر: دار المعارف، ١٩٨١م).

بالمر، ف. ر، **علم الدلالة إطار جديد**، ترجمة: صبري إبراهيم السيد، (مصر: دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٩م).

بالمر، أف آر بالمر، **علم الدلالة**، ترجمة: مجيد الماشطة، (بغداد: مطبعة العمال المركزية، ١٩٨٥م).

البركاوي، عبد الفتاح عبد العليم، **دلالة السياق بين التراث وعلم اللغة الحديث**، (مصر: دار الكتاب، ١٩٩١م).

الجرجاني، عبد القاهر بن عبد الرحمن، **دلائل الإعجاز**، (القاهرة: مطبعة المدني، ط٣، ١٩٩٢م).

حيدر، فريد عوض، **سياق الحال في الدرس الدلالي تحليل وتطبيق**، (مصر: مكتبة النهضة المصرية، د. ت).

الخماش، سالم سليمان، **المعجم وعلم الدلالة**. (جدة: جامعة الملك عبد العزيز، ١٤٢٨هـ).

الرازي، فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين، **المعالم في أصول الفقه**، (القاهرة: دار عالم المعرفة، ١٩٩٤م).

الزركشي، محمد بن بهادر بن عبد الله، **البحر المحيط في أصول الفقه**، تحقيق: عبد القادر عبد الله العاني، (الكويت: دار الكتيبي، ١٩٩٤م).

السكاكي، أبو يعقوب يوسف ابن أبي بكر محمد بن علي، **مفتاح العلوم**، تحقيق: نعيم زرزور، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط٢، ١٩٨٧م).

السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن الكمال أبي بكر، **الإتقان في علوم القرآن**، تحقيق: مركز الدراسات الإسلامية، (السعودية: مجمع الملك فهد، ١٤٢٦هـ).

الشافعي، محمد بن إدريس، **الرسالة**، تحقيق: أحمد محمد شاكر، (دمشق: مصطفى البابي الحلبي، ١٩٣٩م).

الطلحي، ردة الله بن ضيف الله، **دلالة السياق**، (السعودية: جامعة أم القرى، ١٤١٧هـ).

عمر، أحمد مختار، **علم الدلالة**، (القاهرة: عالم الكتب، ط٥، ١٩٩٨م). القرضاوي، يوسف، **كيف نتعامل مع القرآن العظيم**، (القاهرة: دار الشروق، ط٧، ٢٠٠٩م).

قدور، أحمد محمد، **مبادئ اللسانيات**، (دمشق: دار الفكر، ط٣، ٢٠٠٨م).

القرطبي، محمد بن أحمد الأنصاري، **الجامع لأحكام القرآن**، تحقيق: هشام سمير البخاري، (القاهرة: مطبعة دار الكتب المصرية، ١٩٣٩م).

القزويني، جلال الدين محمد بن عبد الرحمن، **التلخيص في علوم البلاغة**، تحقيق: عبد الرحمن البرقوقي، (بيروت: دار الفكر العربي، ط٢، ١٩٣٢م).

مطهري، صفية، **الدلالة الإيحائية في الصيغة الافرادية**، (دمشق: منشورات اتحاد الكتاب العرب، ٢٠٠٣).

مومن، أحمد، **اللسانيات النشأة والتطور**، (الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، ط٢، ٢٠٠٥م).

J. R. Firth, **Introduction Studies in Linguistic Analysis**, Philosophical Society Volume, Oxford: Blackwell, 1957 p, v.